

## إنتكاسات الوحدة الإسلامية عبر التاريخ

### قراءة غزالية

أ. نجيب بن خيرة

جامعة الأمير عبد القادر

تصنيف:

الوحدة أصل ثابت من أصول الإسلام. وهدف أساس للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

ولسنا بحاجة للموقف طويلاً للحديث حول ضرورة الوحدة وأهميتها وموقعيتها على المستوى الديني فذلك أمر ثابت، ومطلوب.

بل إن السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح، ما هي الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟ ومن أين نبدأ السير؟ ومن هي الجهة الأكثر تأهيلاً للتصدي لمهمة وحدة الأمة؟.

فقد فشلت المؤسسات الرسمية في تحقيق هذه الوحدة، والجماهير الغفيرة من المسلمين تنتظر التعبئة والقيادة الرشيدة نحو هذه الوحدة الجامعة المبتغاة. فقد ظلت الأجواء العامة لأمتنا الإسلامية عبر التاريخ تنعم بمشاعر الوحدة، وتحققها في أخرج الظروف وأحلكها.

والوحدة الإسلامية لا تعني مصادرة الخصائص والميزات، بل تفسح لها المجال لتشارك في بناء الكيان الشامل، ويبدو أن العلماء هم الجهة الأكثر تأهيلاً وقدرة على شق طريق الوحدة أمام الأمة. وذلك للأسباب التالية:

1 — لأنهم الأكثر تمسكاً بالإسلام والأحرص على تطبيق شرعه والوحدة مبدأ شرعي لا بد أن يحتضنه العلماء.

2 - العلماء مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتجزئة والفرقة منكر ينبغي إزالته.

3 - العلماء لهم القبول في نفوس الناس.

والشيخ الغزالي - رحمه الله عليه - علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، ساهم مساهمة جادة في رسم معالم النهوض، وتحديد منطلقات الإصلاح. ورد العدوان الغاشم على عقل الأمة وفكرها، وإعادة المعايير على أساس من الوحي (كتابا وسنة)، كما حاول الكشف عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء معاصينا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي اقترفتها الأمة. وكيف أدى ذلك كله إلى الانتكاسات المتكررة عبر تاريخها الطويل. ولعلَّ عدَّة الشيخ الغزالي في ذلك استشراف الماضي، والتوغل في العمق التاريخي، واستيعاب التجارب، والكشف عن حالة الانطفاء الحضاري، وعلل التدين مع دراسة جوانب الصعود والقوة، وأسباب الضعف والسقوط، وتحديد السنن الكونية الإلهية الفاعلة في الإنسان عبر التاريخ.

وللشيخ نظرات صائبة، وأراء ثاقبة تفرَّد بها وحده، في مجال كشف العلل القريبة والبعيدة التي أدت إلى الانتكاسات المتكررة للمسلمين.. وفي هذا البحث المتواضع رصدت رأي الشيخ الغزالي في هذا الموضوع من خلال مؤلفاته في ثلاث محطات رئيسية:

1 - الحروب الصليبية

2 - العهد التركي

3 - قضية القدس

وسوف نقرأ بعض صفحات هذه الانتكاسات عبر هذه المحطات بعين غزالية متنبهة، تصف الداء، وتقدم الدواء، وتضع المفاتيح في الأبواب بدل من وضعها في الجدران الصماء.. أوضاع العالم الإسلامي قبيل الهجمة الصليبية والتتريّة - عوامل التجزئة - ومعوقات الوحدة:

لاشك أن التحديات والأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية اليوم هي نفسها التي واجهتها في القرن الخامس الهجري عندما توافرت كثير من العوامل التي مهدت لانتكاسات متتالية حاقت بالعالم الإسلامي في مختلف أصقاعه. وحفرت الفارقة بين دوله خنادق بعيدة القاع، فأمسى بعضها يتربص بالبعض الآخر، ويتمنى له البوار. بل ويتعاون مع الأعداء فيما وراء الحدود ضدّه. لا شيء. إلا من أجل أنانية متأثرة، وجهل عريض، وحب للسلطة مكين.

يقول الشيخ الغزالي واصفا أوضاع أمة الإسلام في تلك الفترة فيقول: "الدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي ومصر تغير على الدولة العباسية في العراق والشام والحجاز، والدولة الأموية في الأندلس تمنى البوار للفريقين، لكي يؤول إليها الميراث الدسم، والفرقاء المتشاكسون محصورون في أحقادهم لا يحسّون الزحف الصليبي القادم من الغرب، ولا الزحف التتري القادم من الشرق...!!".

ثم يتساءل الغزالي مستنكرا: "أيرضى الإسلام عن هذه الضغائن الخسيسة، أو ينتظر من أصحابها أن يخدموا عقائده وشرائعه؟".

ويرجع الغزالي مرّة هذه المساخر التي تقع باسم الإسلام إلى نظام الحكم "الذي كان القشرة العفنة في كياننا الإسلامي كله".<sup>1</sup>

قد يكون تعدد الدول الإسلامية في دار الإسلام مظهر قوة إذا كان قيامها يجعل التنافس القائم بينها من أجل خدمة الدين، وإغناء الحضارة الإسلامية بأنماط من الازدهار والتقدم، تطبعه كل دولة بطابعها. ولكن عند الملمات والشدائد. يشد المسلمون بأزر بعضهم، ويتنادون للنصرة ودفع كيد المعتدي. وردّه على أعقابهم.

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. هموم داعية. ص 40.

<sup>2</sup> — محمد الغزالي. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين. ص 156.

ولكن حركات الانفصال، والصراع بين القوى الإسلامية على مناطق النفوذ التي ظهرت في تاريخنا الإسلامي. شنت قوة الأمة المسلمة. وجعلتها سهلة المنال لأعدائها المتنمرين وراء الحدود. والسبب في ذلك دون شك هو النماذج الرديئة للأمراء والحكام والخلفاء. سواء في عاصمة الخلافة أو في عواصم الدويلات الإسلامية في الأقاليم.

"والحق أن مأساة الإسلام الأولى لم تحيء من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين، وندرة مواهبهم، وسقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لإدارة قوة صغيرة أو شركة محدودة".<sup>1</sup>

لقد فهم أولئك الحكام (الخلفاء) أن نسبهم الممتد إلى قريش. قوم النبي وعشيرته، كفيلاً بأن يجعله في سدة الحكم يأمر فيطاع. ويقود الجماهير الحاشدة إلى حيث ألقى، ويطوّح بها كيفما يشاء. أليس هو ظل الله في الأرض كما يزعم؟

"فبعد ستة قرون أو أقل أو أكثر من شروق الإسلام يرى شاب مسكين من ولد العباس أنه جدير بقيادة العالم الإسلامي!

أو يرى نظير له من بني أمية (في الأندلس) على شاطئ الأطلسي يجب أن يدينوا له بالطاعة، ألم يكن أجداده الأجداد عمداً في بطحاء مكة قديماً؟

ولو انتقل الإسلام إلى غرب الأطلسي واعتنقه سكان الأمريكتين فينبغي أن يدخلوا في سلطانه، أليس من قريش؟"<sup>2</sup>

ثم يطرح الشيخ الغزالي أسباب الفرقة والتجزئة التي تعرضت لها الأمة المسلمة. والاختلاف الذي أصابها من الداخل. والمتمثل في الصراع بين السنة والشيعة. في دار الخلافة. انقسمت الدولة الإسلامية بعد وفاة السلطان ملكشاه عام (486هـ/1092م) وشهد العالم الإسلامي

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. مائة سؤال عن الإسلام. ص 282.

<sup>2</sup> — محمد الغزالي. هموم داعية. ص 42.

بداية لتفكك دولة السلاجقة حيث دب التراجع بين أبنائه. وانقسمت الدولة خلال السنوات الخمس التي تلت خمس ممالك متنافسة هي: سلطنة فارس وعلى رأسها بركياروق الذي سيطر على بغداد - ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر - ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تنش - ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تنش - وسلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلع بن أرسلان، وفي عام 1104م. انقسمت سلطنة فارس إلى قسمين. وفي الوقت نفسه تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات، كأتابكية دمشق. وأتابكية الموصل، بعض هذه الأتابكيات صغير جدا لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة ...

في داخل كل دولة من هذه الدويلات السياسية اجزأة، كان أمراء الجيش وكبار القادة يقومون بالانقلابات والثورات ويبيعون ولائهم للسلطين حسب الأعطيات والمزايا. أما أمراء الحجاز فكانوا يتلونون بين العباسيين والفاطميين، وكانوا يقتلون الحجاج ويأخذون أموالهم ...

(وإلى جانب هذا التفكك الداخلي دخلت هذه الدويلات مع الدولة الفاطمية في صراع مرير استنفذ طاقتها المادية والبشرية. فقد استطاعت الدولة الفاطمية منذ القرن الرابع الهجري أن توطد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض الخلافة العباسية واجتثاث الفكر الإسلامي السنّي واستبداله بالفكر الشيعي).

أما في الجانب الغربي - بلاد الشام - فقد استمرّ مؤيدوا الباطنية يثبون الرعب ويحيكون مؤامرات الاغتيال، وعندما احتل الصليبيون فلسطين والسواحل السورية راحت

الباطنية والفاطميون يستعينون بأمراء الصليبيين وملوكهم ويعقدون معهم المحادثات ضد العالم السنّي...<sup>1</sup>

قرأ الشيخ الغزالي هذه الأحداث وعلق عليها بقوله: "عندما انطلقت جحافل التتار تدمر كل شيء وتطوي ممالك الأرض تحت أقدامها، وقف السيل الهمجى عند حدود المسلمين متهيأ يدور حول نفسه كما تدور الحجج أمام الجنادل الصلبة لا تجد منفذا... ولكن الجنادل الخشنة، الظاهر كان الخلاف على الحكم قد نخرها وملأ جوفها بالفجوات، وكان التراع بين وراث الحكم من السنة والشيعة قد أدى دوره الخبيث، فما هي إلا جولات قصار حتى تداعت السدود وسقطت بغداد في أيدي الهمج ونكست أعلام السنة والشيعة معا.

فعلام تنازعوا؟.. على غنيمة الحكم، على استلاب الأمة على المال والوجاهة، لو كان الحكم تكليفا مضنيا وتضحية بالنفس والنفس في سبيل الله، ما اكتنفته هذه المخازي... وهكذا أهلك بعض الأمة بعضا قبل أن يهلكها الأجانب".<sup>2</sup>

وبعد التفرع على التقصير والتفريط من جانب الحاكمين في التمهيد للغزو الدخيل، وتنكيس أعلام المسلمين وفتح الأبواب مشرعة أمام الهاجيين.. يرى الشيخ الغزالي أن الأمة الجريحة. رغم جراحها النازفة. وأشلائها الممزقة. لا تزال فيها دماء من روح، وبقية من حياة واستطاعت أن تسد ثغرات الحكم المهترئ. فنشاط الأمة أبقى وأتمى وأجدى.

"وقد سد الثغرات التي أحدثها تخلخل الحكم في التاريخ الإسلامي المديد، ورتق الفتوق الرهيبة التي وقعت.

<sup>1</sup> - انظر: ماجد عرسان الكيلاني. هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994م. ص 73 - 77.

<sup>2</sup> - محمد الغزالي. الإسلام والاستبداد السياسي. ص 230.

### الوحدة الإسلامية يُفشلها السياسيون... ويصنعها العلماء:

عندما سقط الخليفة الأعظم في بغداد، وتحاولت الدولة العجوز تحت مطارق التتار استيقظت أسباب المناعة في الأمة الجريح وتحركت طوائف الدعاة هنا وهناك، ووقع حدث من أعجب الأحداث في تاريخ الدنيا! فقد أسلم التتار، وفشلت الأجهزة الرسمية للكنيسة في اجتذابهم وعاد المنسوب البابوي إلى إيطاليا يجر أذيال الفشل.

وتمّ قريب من ذلك في مطاردة صليبي العصور الوسطى، فإن الدعاة اعترضوا روح الهزيمة عند بعض الحكام، وتوارثوا إشعال نار المقاومة وزودوا صلاح الدين بجيش من الفدائيين ينشدون الشهادة في البر والبحر، وبعد تسعين سنة تحررت القدس، وبعد قرن آخر كان كل شبر من أرض الإسلام قد غسل غسلًا من آثار الممّج المغيرين.

يقول التاريخ: إن هناك رجالاً لم تعرف أَسْمَاءُهم ولكننا رأينا آثارهم، هم الذين أقالوا العالم الإسلامي من عثرته، وأهضموه من كبوته، إنهم الدعاة الربانيون المتجددون الذين عرفوا الحق، واستشعروا السعادة في نصرته، إنهم العلماء الذين يوزن مداد أقلامهم بدماء الشهداء.

إنهم جنود مجهولون في هذه الدنيا، ولكنهم — غداً — أعلام شامخة في ربي الخلد<sup>1</sup>.

ويمكن أن نحمل عوائق الوحدة بين المسلمين في فكر الغزالي في مايلي:

- 1 — الظهور المبكر للحكم المطلق.
- 2 — الانحراف عن المفهوم القرآني للاستخلاف في الأرض.. والأمة القطب.
- 3 — عدم وضع سياسات حازمة واستعجالية لمعالجة مظاهر التشرذم والفرقة في الصف الإسلامي.
- 4 — الفجوة المفتعلة بين السلطان والعرفان وأثر ذلك في الفرقة بين الجماعة المؤمنة.

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. علل وأدوية. ص 204.

5 - التفريط في إحياء مبدأ المناصرة ودعم دائرة الانتماء والولاء. (سقوط بيت المقدس). وهذه العوائق. شككت في مجملها ملامح النكسة الحضارية التي طوّحت بالدولة الإسلامية في أزهى عصورها.

**العرب والأندلس: انتكاسة الطرف الإسلامي، وتوحد القوى غير الإسلامية:**  
إن مشكلات الجبهة الداخلية التي عانت منها الدولة العباسية والبيزنطيون لم يرتبط بالتدهور الحاصل في الجانب العباسي بقدر ما هو مرتبط بالانتعاش الذي برز في الدولة البيزنطية. حيث نجحت هذه الأخيرة في تخطي مشكلة الصراعات الدينية داخلها وبدأت في تبني سياسة إصلاح اقتصادية.. ونجحت في تحقيق إصلاحات سياسية وثقافية، وشهدت الدولة عصر انبعاث حقيقي استمر مائتي عام بلغت فيها دولة الروم ذروة مجدها وقوتها، في حين شهدت نفس الفترة أقصى درجات الضعف والتدهور للدولة العباسية وهي الفترة التي عرفت باسم العصر العباسي الثاني.

إن نفس الشيء حدث في عصر النهضة الأوروبية، فبعدما انتهت الحروب الدينية في أوروبا منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي كان من العوامل الهامة في دعم قوة أوروبا حيث انتقلت من عصر الدول القومية إلى عصر الدول ذات الحركة العالمية — هو ضعف الدولة العثمانية الذي أصابها سواء في الميدان العسكري أو الاقتصادي أو الثقافي<sup>1</sup>.  
والشيخ الغزالي — رحمه الله — يرى أن لتوحد القوى غير الإسلامية في مواجهة الطرف الإسلامي دوراً في إضعاف هذا الأخير.. وسبب ذلك هو الفرقة التي حصلت بين العرب والترك.

<sup>1</sup> — انظر: ودودة عبد الرحمن بدران. وضع الدولة الإسلامية في النظام الدولي في أعقاب سقوط الخلافة. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م. ص 106 — 107.

وقد ركز الشيخ الغزالي في جلّ متابعاته لهذا الموضوع على القومية العربية الزائفة التي تحركت في نفوس بعض الحاقدين على الوحدة الإسلامية الجامعة. وتفلّت أفكارهم من قيود الدين، ورجعت إلى الجاهلية الأولى، مما سبب في انسلاخ أقطار عن الإسلام جملة.

وقد تعالت صيحات للتنادي حول العروبة والقومية العربية في العصر الحديث جعلت الشيخ الغزالي يكشف زيفها، ويجلي عوارها، ويكتب كتابه "حقيقة القومية العربية".

"والشيخ الغزالي من المفكرين الإسلاميين الذين صاغوا ما يصح أن يطلق عليه نظرية في العلاقة الصحيحة بين العروبة والإسلام. إذ يرى الشيخ أنه لا يصلح لقيادة المسلمين إلا من أشرب قلبه روح العربية وتفقه في تراثها وخصائصها، وعلة ذلك عنده: "أن الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين هما: الكتاب الكريم والسنة المطهرة... وما يفقه حقيقة الوحي ومنهج الرسالة إلا خبير بأدب العروبة راسخ القدم في بياها، ذواق لطبيعة البلاغة العربية، بصير بدلالات الكلام القرية والبعيدة ومعانيه الأصلية والثانوية... ولا نعني بالعروبة هنا الجنس، بل نعني اللسان. لا نعني النسب القريب أو البعيد ولا الدم النقي أو المختلط، بل نعني العرب جميعا سواء فيهم الصريح الأصل أو المستعرب الذي كان ينتمي إلى أي جنس آخر في أي قارة من قارات الدنيا...".<sup>١</sup>

إن إدراك العرب لواجباتهم تجاه إخوانهم في العقيدة والمصير والتقرب إلى ظروفهم وأوضاعهم هو — برأي الشيخ الغزالي — جزء من الإحساس المقدس إزاء مقتضيات رسالتهم وما ناطته بهم الأقدار العليا من تكاليف وأعباء، وكأن فهم الشيخ الغزالي هنا لهذا المعادلة يشترط لصياغة المعنى الصحيح للأخوة الإسلامية — والتي تعتبر من المرتكزات الروحية والثقافية

<sup>١</sup> — محمد الغزالي. حقيقة القومية العربية. ص 14. وانظر: إبراهيم نوري. الشيخ محمد الغزالي مفكرا وداعية (رسالة ماجستير) جامعة الأمير عبد القادر. 1999م. ص 108.

والسياسية بين المسلمين — أن توضع قضية العروبة في إطارها الحضاري السليم لتلافي أي حساسيات سلبية مؤثرة في وحدة الكيان الإسلامي<sup>1</sup>.

يذكر الشيخ الغزالي — مؤهلات كل جنس (من العرب أو الترك) وما يمكن أن يقدمه كل منهما لخدمة الإسلام ونصرة دولته، وترك أمته. السيّدة في الأرض. ولكن السياسات الكذوب مزقت شمل الشيعين وجعلتهما أكلة صائغة للأعداء المتربصين، فيقول: "لقد امتاز الأتراك أول عهدهم بالصفات التي امتاز بها العرب الأولون من حماسة للعقيدة، وعزوف عن اللهو، وبعد عن الميوعة وإقبال على الله، ورغبة فيما عنده، وهذا سرّ غلبهم وتفوقهم على الدويلات الإسلامية الأخرى، وهو كذلك سرّ النجاح العسكري الباهر الذي أحرزوه في شرق أوربا. إلا أن العرب كانوا أقدر على نشر الإسلام بالدعوة والتربية منهم، وصلتهم بلغة القرآن والسنة تعطيهم في ذلك فضل مقدرة لا يجوز نكرانها.

"ولو تعاون الجنسَان على البر والتقوى لاستفاد كلاهما من خصائص الآخر، وانتفع الإسلام بهم أجمعين، لكن المؤسف أن العنصر الذي ينبت منه الحكم تغريه القوة بالبطش، وبقاء الحكم فيه إلى الأبد يضيف عليه مهابة لا يستحقها، ويلحق بالآخرين معرة يستنكفون من وصمتها.

وقد جرّ هذا الوضع الباطل إلى باطل آخر ظلت بذرتة تنمو مع الزمن. وخصوصاً أن توارث الخلافة في بيت واحد بدأ يؤتي ثماره الفجّة، فتولى الملك رجال سفهاء، وتطرق الخبال إلى الدماغ الذي يدير شؤون الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فترجّح الجسم كله على شفا هاوية ... وكان هذا يحدث في بلادنا بينما كانت دول أوربا تلمّ شعثها، وتنظم شؤونها وتتمترّ بنهضة علمية بعيدة المدى<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> — إبراهيم نويرة. المرجع السابق. ص 108.

<sup>2</sup> — محمد الغزالي. الإسلام والاستبداد السياسي. ص 225.

ويضرب الشيخ الغزالي. للتراع بين العرب والأثراك. نموذج (التراع بين المصريين والأثراك) قبل أن يغزو الأخيرون مصر يقول: "فأريت صورة سيئة من الصور التي تكررت في تاريخنا الوسيط.... ولا دلالة فيها إلا اختفاء معنى الدين وهذاه، واستعلان شهوات الغلب والجاده.. وذلك في الوقت الذي أخذ الأوروبيون فيه يجوبون البحار الكبرى، ويكتشفون مجاهل العالم. ويسيطون سلطاهم على ما سبقوا إليه من بر وبحر!!".<sup>1</sup>

كما يضرب الشيخ الغزالي. بعبارة "الوطنية" عرض الحائط عندما يصحح ما ورد في كلام المؤرخ ضياء الدين الريس في حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م. حيث وصف شهداء الأزهر بقوله: "شهداء الوطنية الأول" وذكر أسماعهم. يقول الشيخ الغزالي معقبا عن العبارة "شهداء الوطنية الأول"، "ونحن نقف عند هذه العبارة لنصحح خطأ قد يسبق إلى الأذهان، إن هذه العبارة مع احترامنا العميق للأستاذ المؤرخ، لا تصور التفكير الإسلامي البحت السائد في ربوع الأمة الإسلامية كلها يومئذ شرقا وغربا ...

إن كلمة "وطنية" بدلالاتها الاصطلاحية الحديثة لم يعرفها المسلمون قط. المسلمون الذين قاتلوا الغزاة في القاهرة وغيرها كانوا منبعثين عن شعور ديني ناثري والطالب الأزهر الذي قتل "كليبر" كان سوريا لا مصريا. وإنما شارك في الحرب هو وزملاؤه من شتى الأقطار بباعث الإيمان المجرد. ورجالات الأزهر الذين قادوا حركة المقاومة وقتل كثير منهم فيها كانوا مجاهدين في سبيل الله منافحين عن أمتهم، ورسالتها وموارثها وشعائرها"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - محمد الغزالي. معركة المصحف في العالم الإسلامي. ص 176.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه. ص 100 - 104.

يقول الغزالي: "إن نزعة البعث العربي التي أنضجها الاستعمار أخيراً قد جرأت العرب على خيانة رسالتهم. ونبد الولاء لدينهم. وتجاهل المنتسبين إليه هنا وهناك...!!".  
 إن الحكومات العربية ينبغي أن تكون وفية للإسلام وشعوبه الكثيرة تحزن لآلامهم. وتكثر إقصاياتهم، وتسارع إلى نكدهم. فإذا لم يكن لديها العون الفعال. فليسعد النطق إن لم يسعد الحال...<sup>1</sup>.

### قضية فلسطين... وانتكاسة الوحدة الإسلامية:

حول قضية فلسطين كتب الشيخ الغزالي عنها تحت عناوين كثيرة أذكر منها:  
 (فلسطين وواجبنا العام)، (الصهيونية في أحضان الصليبية)، (يهودية وصهيونية)، (حتى تنتهي هذه الأحقاد)، (صراع بين رسالتين)، (فلسطين إسلامية)، (الصهيونية عقيدة دينية).  
 وهي في مقدمة القضايا الإسلامية التي تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره، وصميم قلبه وفكره، وعد نفسه حارساً لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى وأولى القبلتين. واهتمامه بقضية فلسطين يأخذ وجهتين:  
الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفاً واحداً، ضد العدوان اليهودي المغتصب.  
والثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، وتكنولوجيا حياته المتطورة. في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتجئين العبرة من عدونا<sup>2</sup>.  
 يتساءل الشيخ الغزالي مستنكراً على العرب القومية الزائفة التي اتخذها بعضهم ديناً!.

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. الإسلام في وجه الزحف الأحمر. ص 168.

<sup>2</sup> — يوسف القرضاوي. الشيخ الغزالي كما عرفته — رحلة نصف قرن — ص 227.

"ماذا كسب العرب من ترك التناصر بالإسلام؟ وماذا كسبوا من الانحصار في جنسية ضيقة؟ لقد ضلّوا وأضلّوا وضاعوا وأضاعوا، ثم جاء يهودي من بولندا اسمه "مناحم بيغن" ليتزل بأرض فلسطين ويقول لعربها: باسم التوراة عندما قرر العرب أن ينسوا أو يتناسوا اسم القرآن ...

إن البكاء على رباط العقيدة التي أوهيناها أول علائم اليقظة، وأظن العرب قد آن لهم أن يستيقظوا فليس من بديل لليقظة إلا الموت المحقق وخزي الأبد!! للعرب وغير العرب سواء في أنهم خلقوا لعبادة الله، وأداء حقوقه والاستعداد للقاءه.. لكن العرب وحدهم أولى الأجناس بمعرفة الله والتزام حدوده، إذ أن حاجتهم إلى الدين تفوق حاجة غيرهم وفرص التسامي التي تتاح لهم يوم يتقون أضعاف الفرص التي تتاح لغيرهم".<sup>1</sup>

وقد أبرز الشيخ الغزالي إسلامية القضية الفلسطينية تحت عناوين مختلفة، وأظهر تماسك اليهود بعقيدتهم وكيف يستमित شذاذ الآفاق في قتالنا، أما نحن فإنه يراد للعقيدة أن تخرج من حلبة الصراع، وأن لا تذكر في ميدان القتال، لأن المواجهة سياسية ليس إلا!!.

فيقرر الشيخ دور العقيدة في أكثر من موضع: "بناء الأمم على غير عقيدة لا يساوي شيئاً ... إن العقيدة في الكيان كالقلب في الجسد الإنساني وكالتيار في المصباح الكهربائي، وكالوقود في الآلة الدوارة".<sup>2</sup>

ويقرر الغزالي في مساحات كثيرة من كتبه أن قضية فلسطين قضية دينية عند أصحاب الرسائل السماوية جميعاً، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. علل وأدوية. ص 225.

<sup>2</sup> — محمد الغزالي. قذائف الحق. ص 87.

"المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر في سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوي ويرون الدفاع عنه جزءاً من الإيمان، ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه! ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه! فكيف يتجاهل هذا؟"

والنصارى يرون بيت المقدس قبضتهم، وبه قبر المسيح، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدي المسلمين لأنهم أمناء عليها، وحماة لها، ولرفع التنازع الطائفي بينهم على حيازتها! واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية! وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لا يمنع من العودة إليها وطرد العرب منها!.

فإذا كان الدين وراء كل دعوى، فكيف جاء من أسموا أنفسهم "العروبيين" وجردوا العرب من ولائهم الإسلامي، وأغروهم بجعل القضية صراعاً جنسياً أو نزاعاً "إمبريالياً" وغير ذلك من الأوصاف المكنوبة؟

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟ إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل، ويتآمرون على اغتصاب بقيته، والأخبار تترى — وأنا أكتب هذه السطور — إن مساجد شتى في يافا وعكا نسفت، وأن ترويح الطلاب العرب في مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية، وقطاع غزة، أو كما يعبر اليهود "يهودا والسامرة" إحياء لعناوين التوراة!

إنني أتساءل: ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟<sup>1</sup> ويقول الغزالي في موضع آخر مؤكداً إسلامية القضية. وصبغه الصراع الدينية. بيننا وبين اليهود: "إن قضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدتها من طابعها الديني، والقول بأنه يجب طرد

<sup>1</sup> — محمد الغزالي. مائة سؤال عن الإسلام. ص 434 — 435.

المستعمرين اليهود من بلادنا كما يجب طرد المستعمرين البيض من جنوب إفريقيا وأن كلا النظامين يقوم على نزعة عنصرية هذا الكلام تغطية سخيفة لحقائق مرّة.

إن العدوان اليهودي المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة. هي إبادة أمة وإزالة دين، هي الإجهاز على الأمة العربية التي حملت الإسلام أربعة عشر قرناً، وتريد أن تظل عليه شكلاً إن تركته موضوعاً.

والذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين، يشاركون في تحقيق هذه الغاية، لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامي زائلة، والعرب من بعدها زائلون، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون، وهذه هي الخطّة!

إن ذهاب العرب بأنفسهم وشموخهم بنسبهم وحديثهم عن حضارة كنعان وقحطان وعدنان، إن كانت لهم حضارة، إن ذلك يطعن الأخوة الإسلامية طعنة نافذة، فإذا انضم إلى هذا الغرور نسيان لفضل الإسلام وبعث لنشاط عصري جديد يقود العروبة فيه الشيوعيون والنصارى والمسلمون، فذاك هو الارتداد الذي ينتهي بالعرب إلى مصارعهم ويخولهم أجمعين إلى لاجئين لا وطن ولا دين!<sup>١</sup>

في الحرب العالمية الأولى. انضمت الثورة العربية إلى الإنكليز وقاتلت الأتراك. فماذا جنى العرب؟ أعطى الإنكليز فلسطين ووطناً لليهود. ووقعت وحشة بين العرب والترك انتهت بارتداد الحكم التركي عن الإسلام؟

"وعندما أقام اليهود دولتهم في فلسطين وإذا يهود اليمن والعراق ينضمون إلى يهود بولندا وروسيا في ضربنا.. أين الوطنية المزعومة؟ سبحان الله كأن الوطنية استجلبت لتمزيق الإسلام وحده.. وبدأ الانفصاليون اللبنانيون ينشقون عن إخوانهم العرب! وإذا نصارى قادمون من وادي النيل جاءوا لشد أزر المنشقين الغادرين!

<sup>١</sup> — محمد الغزالي. هموم داعية. ص 36.

إذن المراد الالتفاف بالأمة الإسلامية وحدها ومخادعتها عن رسالتها وموارثها!"<sup>1</sup>. ولا يقف الشيخ الغزالي عند قضية التحرير، بل لابد من العمل على (توحيد الأمة) كما أمر الله سبحانه فهي (أمة واحدة) وليست أمما، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرب بينها. العقبة الكأداء في سبيل وحدتها هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصا بين حكامها وقادتها. ويرى الشيخ أن إعادة الخلافة الإسلامية فرض عين على الأمة. وحتى تعود يذكر الشيخ جملة من المقترحات النافعة.

- 1 — إعادة النظر في مناهج تعليم الإسلام في شتى مراحل الدراسة العامة. وإعادة النظر في مناهج التعليم الديني نفسه لتخريج فئات أوسع دراية وأحد بصرا.
- 2 — اختيار الدعاة وفق مواصفات أدق وأرقى مما يتبع الآن، وتوسيع آفاق الدعوة الإسلامية أو الإعلام الإسلامي بحيث تستوعب ميادين النشاط الإنساني جميعا.
- 3 — إقامة حلقات اتصال بين الجامعات الإسلامية الموجودة الآن في عواصم الإسلام كلها لتبادل الخبرة والمشورة العلمية والعملية.
- 4 — عقد مؤتمرات دورية متصلة لبحث مشكلات الدعوة ورصد الهجمات المنظمة ضد الإسلام ووضع الخطط المناسبة لخدمة الرسالة الإسلامية.
- 5 — بسط الرعاية الدينية على المسلمين المهاجرين إلى الخارج والإفادة من مواضعهم الاجتماعية والثقافية حتى يكونوا معابر لرسالتنا العظيمة، بدل أن يلوب هؤلاء في دوامة الحياة الغربية.
- 6 — التقاط الفارين من وجه الحكومات المعادية للإسلام في إفريقيا وغيرها وتيسر التحاقهم بالمدارس والمعاهد العربية ليعودوا أقدر على قيادة أممهم ورد الفتن عنهم.
- 7 — دراسة المؤتمرات التبشيرية المحلية والعالمية واستكشاف المؤامرات المبيتة ضدها.

<sup>1</sup> — المرجع نفسه. ص 98.

- 8 - وبديهي أن ذلك كله لن يتحقق كلاً أو جزءاً إلا في ظل حكومات تحترم الإسلام، وترى نفسها مسئولة أمام الله عن القيام بحقوقه.
- 9 - وليست كل الحكومات العربية كذلك، فهناك من يكره الإسلام والحديث عنه، وهناك من يقبله عبادات لا معاملات، وعقيدة لا شريعة ويرفض الدعوة إلى تطبيقه كله.
- 10 - وهناك من يمهّد لاستقبال الشيوعية ومن يمهّد لاستقبال العلمانية.
- 11 - ولا تعليق على هذا الارتداد السافر أو المحجب إلا أن يقول:
- على الشعوب أن تتحرك وإلا تعرضت للفناء، عقوبة من رب السماء!!<sup>1</sup>.

#### كيف تعود القدس؟

في حوار قبيل وفاته سأل الصحفي محمد يونس من مجلة (نصف الدنيا) الشيخ الغزالي عن السبيل إلى استعادة بيت المقدس فأجاب جواباً ننقله مختصراً.

س: القدس التي تحتضن أولى القبليتين وثالث الحرمين ومسرى رسول الله ﷺ، ما السبيل لاستعادتها؟

فأجاب الشيخ: عندما يستعيد المسلمون حكمهم لأنفسهم أولاً، وعندما يصبحون أصحاب شرف وقدر على أداء حقوق الله عندئذ فإن الله سوف ينصرهم، ولكن تبقى ضرورة استعادة القدس بأي وسيلة، وطالما القدس محتلة يظل الجهاد فرض عين على كل مسلم. فلا يمكن أن نقبل سلاماً بدون القدس.

إسرائيل تمهد لابتلاع القدس ليس فقط بتزييف الجغرافيا وإنما أيضاً بتزييف التاريخ!!.. لقد تزايد عدد المستوطنين إلى 160 يهودي في القدس العربية لمحاولة فرض أغلبية سكانية يهودية عليها، مع استمرار الإجراءات التي تستهدف تقليص عدد المسلمين والمسيحيين وإرغامهم على الهجرة، ومصادرة الأراضي العربية.

<sup>1</sup> - محمد الغزالي. فضائل الحق. ص 148 - 149.

وقد نظمت. السلطات الإسرائيلية مهرجان تحت شعار القدس 3000 بحجة مرور ثلاثة آلاف سنة على تأسيس القدس على يد الملك داود كعاصمة للدولة اليهودية!، وقبل أن ينتهي هذا المهرجان تمت الموافقة على مشروع قرار لنقل سفارة أكبر حليف لها إلى القدس، وهكذا يجري تنفيذ الخطة بدقة ودهاء، وعندما يأتي اليوم المتفق عليه لبحث قضية القدس لا يجد الفلسطينيون شيئاً يتفاوضون عليه!..".

وعن حرب 1967م يقول الشيخ: "ثم جاءت سنة 1967. وجنينا الحصاد علقما، لكنني ما فكرت قط في أن الخزي الذي نزل يحمل كل هذا السواد، ويلقنا في عار لا أول له ولا آخر... يا أسفا على بلدي المحروب وأمتنا المغشوشة، في عشرين دقيقة فقط، دمرت مطاراتنا كلها، واحترقت طائراتنا وهي جاثمة على الأرض!! ولما كان لدينا أعظم جهاز للكذب في دنيا الناس، فقد خرج الإعلام الموجّه بجناحيه: الصحافة والإذاعة يقول للناس: إننا دمرنا طائرات اليهود...! وماهي إلا أيام تعد على الأصابع، حتى كان الجيش بين قتيل وأسير وهارب، ما أغنى الكذب عنه شيئاً!!".

ويرجع ذلك الشيخ إلى (الحكم الفردي).

"إن الحكم الفردي الجائر لا يكسب معركة أبداً! بل الغريب أن أعظم هزائمه كانت في الميدان الذي تخصص فيه..!

(في الأزهر .. دعاية "نكسة أحد" بالله ما صلة هزيمة 1967، بما أصاب المسلمين في أحد؟! ما صلة السكاري والحشاشين، بالصادقين والشهداء؟!..

<sup>1</sup> — محمد الغزالي قصة حياة. مجلة إسلامية المعرفة. السنة الثانية. العدد السابع. 1997م. ص 221.

<sup>2</sup> — المرجع نفسه. ص 221.